السياسة اللُّغوية الفرنسية في الجزائر خلال فترة الاستعمار (1830-1962م)

د. شميسة خلوي
جامعة الجزائر2 (أبو القاسم سعد الله)

الملخص:

لقد تعرَّضت أمتنا العربية والإسلامية للاستعمار الغربي المباشر، وعانت من ويلاته سنين عديدة، والجزائر من البلدان التي رزحت تحت نير الاستعمار الفرنسي أكثر من (130) سنة، سعت من خلالها فرنسا جاهدة لإبادة الشعب الجزائري ومحو مقوِّمات شخصيته العربية الإسلامية بشتى الطرق.

ولقد حاولنا في هذه الورقة البحثية أن نكشف عن هذه السياسة الاستعمارية اللغوية، بكل مراحلها نظريا وتطبيقيا، من الدراسة التشخيصية للوضعية اللُّغوية والاجتماعية للمجتمع الجزائري، إلى تحديد تصورات وأهداف السياسة اللُّغوية، وصولا إلى الوسائل التي استخدمت بغية تحقيقها، فتنفيذ الخطة وتقويمها.

إضافة إلى بسط الحديث عن طرق مواجهة هذه السياسة الاستعمارية من طرف الفئات المثقفة من المجتمع الجزائري التي عملت على رد أطماع فرنسا في تشويه مقومات الأمة، على شاكلة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي سعت إلى فضح خطط فرنسا، وتوعية الشعب بضرورة المحافظة على لغته ودينه ومكتسباته.

الكلمات المفتاحية: الجزائر، السياسة اللغوية، اللغة العربية، الاستعمار الفرنسي.

Abstract:

Language policy of France in colonial Algeria (1830-1962)

In the present paper, we attempt to unveil the language policy conducted by France in colonial Algeria through all its stages, at both the oretical and practical level: from a diagnostic study of language and social status of Algerian society, to a determination of perceptions and goals of language policy, as well as the means used to achieve it. Not forgetting to mention the implementation and ongoing valuation of this plan.

Moreover, we will deal with the strategies used by educated classes of Algerian society, in order to confront this colonial policy, such as working to respond strongly

to the cupidity of France as for the distortion of the elements of the nation. Here, we will refer to the Association of Algerian Muslim Scholars, which sought to expose France's plans, and to educate the population about the need to maintain their language, their religion and their heritage.

Key-words: Algeria,Languagepolicy,Arabiclanguage ,French Colonisation

لقد تعرَّضت أمتنا العربية والإسلامية للاستعمار الغربي المباشر، وعانت من ويلاته سنين عديدة، عادت بالخراب على البلاد والعباد، والجزائر من البلدان التي رزحت تحت نير الاستعمار الفرنسي أكثر من (130) سنة، سعت من خلالها فرنسا جاهدة لإبادة الشعب الجزائري ومحو مقوّمات شخصيته العربية الإسلامية بشتى الطرق، وبكل الوسائل المتاحة لها.

وتعد اللغة من أقدم تجليات الهوية،وهي التي تنتج ثقافة الأمة، ولهذا ما فتئت فرنسا تستقر بالجزائر، حتى أعلنتها حربا على تعليم الجزائريين عموما وعلى اللغة العربية خصوصا، وليس غريبا أن يكون التاريخ واللغة ثنائية محورية في حياة الشعوب والأمم، ولعلنا «إذا أردنا أن نعيِّن عمل كل من اللغة والتاريخ في تكوين الأمة، قلنا: اللغة، تكون روح الأمة وحياتها، والتاريخ، يكون ذاكرة الأمة وشعورها»[1]، وبذلك تكون للغة خاصية إنسانية مرتبطة بالإنسان وكينونته.

وفي هذا البحث نحاول أن نكشف عن هذه السياسة الاستعمارية اللغوية، بكل مراحلها نظريا وتطبيقيا، من الدراسة التشخيصية للوضعية اللُّغوية والاجتماعية للمجتمع الجزائري، إلى تحديد تصورات وأهداف السياسة اللُّغوية، وصولا إلى الطرق والوسائل التي استخدمت بغية تحقيقها، فتنفيذ الخطة وتقويمها المستمر، معتمدين على ثلاثة مناهج، التاريخي والاجتماعي واللِّساني، وبالرجوع لأهم المصادر العربية والأجنبية التي تحدَّثت عن السياسة اللُّغوية كعِلم من علوم اللِّسانيات الاجتماعية، وكذا السياسة اللُّغوية الفرنسية على أرض الجزائر المحتلة آنذاك، ومعالم تاريخها العام.

لكن يتعيَّن علينا قبل أن نخوض في تفاصيل حيثيات البحث، أن نفرد حيزا منه للحديث ولو بشكل مختصر عن دلالات المصطلحات المعنية بالبحث، والمتمثلة في السياسة اللغوية.

السياسة اللغوية مركبة من لفظين اثنين (السياسة) و(اللغة)، فأما السياسة فمشتقة لغة من الفعل (ساس) يُقال: « سُسْتُ الرعيّة سياسة، و سُوِّس الرجل أمور الناس، على ما لم يسم فاعله، إذا مُلِّك أمرهم»[2] ، ولا يختلف المعنى الاصطلاحي عن نظيره اللغوي، إذ أخذت السياسة جملة من المفاهيم المتقاربة، يقول المقريزي (ت: 845ه) معرِّفا السياسة اصطلاحا، هي: «القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأحوال»[3]، كما ورد في معجم السياسة

تعريفا اصطلاحيا جامعا لمفهوم السياسة، إذ تعدُّ «فن ممارسة القيادة والحكم وعلم السلطة أو الدولة وأوجه العلاقة بين الحاكم والمحكوم»[4]، وعلى هذا فإننا لا نلفي اختلافا كبيرا بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي، وتبقى السياسة انطلاقا من التعاريف الواردة هي عملية اتخاذ قرارات خاصة بمجتمع ما، بقطبيها الحاكم والمحكوم.

بينما اللغة فـ «أصلها (لغي) أو (لَغَو) جمعها (لغي) و(لُغَات)»[5]، ومن التعاريف الجامعة للغة اصطلاحا قول عبد الرحمن بن خلدون (ت: 1406م): «اللّغة في المتعارف هي عبارة المتكلِّم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلا بدَّ أن تصير ملكة متقرِّرة في العضو الفاعل لها وهو اللِّسان وهو في كل أمَّة بحسب اصطلاحاتهم»[6]، وعلى هذا الأساس فإن هذا النظام من الرموز الصوتية الذي يُعبَّر عنه باللغة، هو ما يدور بين المخاطِب والمخاطَب.

وحينما تقترن السياسة باللغة وتصير (سياسة لغوية)[7] فإنها تعني «مجمل الخيارات الواعية المتخذة في مجال العلاقات بين اللغة والحياة الاجتماعية، وبالتحديد بين اللغة والحياة في الوطن»[8]، وهذا يعني أن السياسة اللغوية عبارة عن قرارات تتخذ من طرف الهيئة المخولة، للتعامل مع اللغة أو اللغات المستعملة داخل كيانها.

ونشير ها هنا إلى أن التطبيق العملي "للسياسة اللغوية" التي تضعها المؤسسات الرسمية للدولة، يوسم بـالتخطيط اللغوي، وهو وثيق الصلة بالمصطلح السابق، إذ يعرَّف بأنه «البحث عن الوسائل الضرورية لتطبيق سياسة لغوية وعن وضع هذه الوسائل موضع التنفيذ»[9]، فالتخطيط اللغوي إذن هو الذي يضع السياسة اللغوية قيد الإنجاز، تطبيقا لا تنظيرا.

إن بداية ظهور ماهية هذا المصطلح كانت بإطار علمي محض أحاط بالجهود الجليلة التي قام بها علماء اللِّسانيات الاجتماعية خدمة للُّغة وتثمينا لدورها في المجتمع، فعُدَّت بذلك السياسة اللُّغوية فرعاً من علوم اللُّغويات الاجتماعية، والتي لم تنحصر في مجال التطوير اللُّغوي الأكاديمي، بل أضيفت إلى جهودهم كل الاجتهادات التي تصبُّ في تفعيل دور لغة ما في محيط ما لأهداف معيَّنة، بما في ذلك السَّاسة وأصحاب القرارات.

وعند رجوعنا لثنائية (اللُّغة) و(الاستعمار الفرنسي للجزائر) فإن أفضل معادلة تطفو على السطح هي السياسة اللُّغوية الفرنسية في الجزائر إبَّان الاحتلال، والمتمعن في تاريخ الجزائر يدرك حتما أن اللُّغة العربية قد كانت من أهم المظاهر الثقافية التي ركَّز عليها المحتل جهوده بغية سحبها عن دورها الريادي، عبر سياسة لغوية انتهجها ساسته.

ونتيجة لذلك فإن الوضع اللغوي لم يبق على حاله إذا ما قارنا بين فترة قبل وخلال فترة الاحتلال وكذا بعده، ومعلوم بصورة عامة أن اللغة العربية لم تبق جامدة على صورتها الأولى، «بل وقعت عليها تطويرات متلاحقة بدءا بالأثر الإسلامي الذي امتزجت بسببه العربية بالإسلام

إلى الأبد، وانتهاء بأثر الاستعمار الغربي في العصر الحديث»[10] ،وكل هذه المؤثرات خلقت نوعا من الخصوصية طبعت الثقافة الجزائرية.

ولنا أن نبسط الحديث عن وضعية الجزائر قبل الاحتلال لتتضح لنا السياسة الاستعمارية بعد الاحتلال والاختلافات التي طرأت على المجتمع الجزائري حينذاك، ففي بداية الفتح الإسلامي[11] كان ملوك البربر يحكمون أرض الجزائر، وحتى بعد قضاء الرومان على دولهم الكبرى بقوا يطلبون الاستقلال حتى نالوا منه حظا وافرا على عهدي الوندال والروم، لكن لم يكونوا دولا عظمى كسابق عهدهم، وإنما كانوا طوائف تحت ملوك متعددين، ولما جاء العرب وجدوا أمامهم دويلة جرجير، فقضوا عليها بسهولة، وانضم الروم إلى البربر، و صاروا يدا واحدة على العرب.

وبطريقة تدريجية تم الفتح العربي حربيا وسياسيا ودينيا، وكان الفضل فيها لقادة مسلمين، على رأسهم عقبة بن نافع (ت: 63هـ) وحسان بن النعمان الغسَّاني (ت: 86ه) وموسى بن نصير الفهري (97هـ).

وتعاقبت على أرض الجزائردول مختلفة خلال حقب زمنية متوالية، وصولا للدولة العثمانية التي شهدت فيها الجزائر أوج ازدهارها، فـ«الجزائر لم تكن فقط دولة، ولم تكن فحسب دولة عظمى بين الدول العظمى بل كانت في قمة الدول العظمى»[12]، إلى غاية 1830م، حيث غزت فرنسا أرض الجزائر.

ويرجع السبب الرئيس للاحتلال الفرنسي للجزائر[13] إلى المطامع الفرنسيّة في خيرات البلد واستغلال مكانها الاستراتيجي في المنطقة، وما حادثة المروحة إلا سببا غطى النوايا الحقيقية لفرنسا تجاه الجزائر.

فبعد حصار غير مجد دام ثلاث سنوات جمع الفرنسيون جيشا ضخما وأسطولا جرَّارا وتقدموا نحو سيدي فرج باعتبار المكان نقطة ضعف في الدفاع الجزائري وفي غضون أيام تحوَّلت حملة رد الشرف إلى احتلال وغدت الجزائر كلها غربا وشرقا، شمالا وجنوبا مرتعا للمحتل، بل ألحقوا الجزائر بفرنسا واعتبروها إقليما فرنسيا! فكان غزوا للإنسان والأرض والدين والثقافة.

وشهدت الجزائر مقاومة شعبية مسلحة[14]، منها المنظمة، وتزعمهاالأمير عبد القادر الجزائري (ت:1883م) في الغرب الجزائري وأحمد باي (ت:1850م) في الشرق الجزائري، ومقاومة غير منظمة على شاكلة ثورة بومعزة (ت: 1895م) وثورة الشيخ المقراني (ت:1871م) وغيرها.

وبقيت شعلة الروح الوطنية متَّقدة رغم بقاء المستدمر الفرنسي جاثما على أرض الجزائر، فكان النضال السياسي[15]، الذي انتهى إلى ضرورة اندلاع ثورة مسلحة باعتبارها الحل الوحيد لاسترجاع الوطن المسلوب، واستجاب الشعب الجزائري لنداء جبهة التحرير الوطني وعقد العزم أن تحيا الجزائر، واندلعت الحرب التحريرية فعليا يوم الفاتح من نوفمبر 1954م.

وقدَّم الجزائريون خلال فترة الحرب التحريرية النَّفس والنَّفيس في سبيل تحرير الجزائر، فتعذَّر على المحتل كبح نضاله وحبس إرادته، وبعد جهاد طويل مرير، وبعد أن قدمت الجزائر أكثر من مليون ونصف المليون من الشهداء، تحقَّق النصر ورفرَفت راية الجزائر خفَّاقة يوم استقل وطننا رسميا في الخامس من جويلية 1962م، بعد احتلال دام 130 سنة.

وليست الإطالة في هذا من غرض المقال، وإنما المقصود هو ايضاح الوضعية التاريخية التي ترتكز عليها الدراسة التشخيصية للوضعية اللُّغوية والاجتماعية للمجتمع الجزائري.

إذن، بعد هذه الجولة حول تاريخ الجزائر، لعلنا نتساءل الآن كيف كانت وضعية اللغة التي جعلت منها فرنسا نقطة عبور إلى محاولة تغريب الشعب الجزائري بوساطة السياسة اللغوية الجديدة؟

بداية، تذكر المصادر التاريخية أن اللغة العربية قد انتشرت بعد الفتح الإسلامي للمنطقة، إذ لما «جاء العرب إلى المغرب كان انتشار لغتهم به مسايرا لجنودهم، فما فُتحت قطعة منه حربيا إلا انتشرت بها لغتهم، وكان لذيوع حضارتهم بين البربر نفس السرعة التي كانت لفتوحهم»[16] مما يعني أن العربية متجدرة عند الجزائري منذ الفتح الإسلامي للبلاد، والجزائري ليس حديث عهد باللغة العربية، التي هي لغة دينه وعقيدته، بل «إن لغة التعليم والتأليف والإبداع والتفكير كانت لغة الضاد، إذ لم تكن البربرية تعيش مع العربية إلا معايشة العامية للفصحى اليوم»[17]، وهذا حال الأمصار التي دخلها الإسلام وعربها، إذ كان المسلمون المتقدمون لما سكنوا أرض الشام ومصر، ولغة أهلهما رومية، وأرض العراق وخراسان ولغة أهلهما فارسية، وأهل المغرب، ولغة أهلها بربرية عوّدوا أهل هذه البلاد العربية، حتى غلبت على أهل هذه الأمصار: مسلمهم وكافرهم»[18]، وعلى هذا كانت اللغة جزء من التكوين العام للنسيج الثقافي الجزائري قبل الاحتلال.

والأصل في اللغة أن تكون «ترجمة انتماء إلى جماعة أو شعب أو أمة، ترفد هويتها من الوعي بالذات الجماعية، أو التاريخ – الذاكرة، أو الجغرافيا – التراب (الوطن أو البيئة) ... وكلما ابتعدت اللغة عن إثنية ترابية ضيِّقة، حملت مشروعا ثقافيا حضاريا عاما»[19]، وهذا ما رافق العربية –ويرافقها- دوما باعتبارها لغة دين كل مسلم، مهما اختلفت مشاربه وتنوعت أصوله.

هذا من ناحية انتشار اللغة العربية بين أوساط الجزائريين -مع وجود اللغة العامية والأمازيغية أيضا-والأمر لم يختلف إن تحدثنا عن التعليم، إذ «شهد عدة فرنسيين شاهدوا الجزائر في فترة الاحتلال بأن الأمية كانت منعدمة تقريبا في الجزائر وأن سكان الجزائر قد يكونون أكثر ثقافة من سكان فرنسا، فكل الناس تقريبا يعرفون القراءة والحساب»[20]، ناهيك عن وجود فئة من الجزائريين هم أكثر تعلُّما وتفتحا على الآداب والعلوم ممن أخذوا على عاتقهم التدريس والتأليف.

وما ذكرناه لم يخف عن السلطات الاستعمارية المخولة بترتيب المجتمع اللغوي الجديد، فباعتبار «السياسة اللغوية هي سليلة علم الاجتماع اللغوي فإن الخطة لا بد أن تنبني على واقع صحيح، وعلى الذي يبني هذه السياسة ويخطط لها أن يدرس العوامل الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية والتربوية التي تتداخل مع المسألة اللغوية في المجتمع»[21]، ولهذه الاعتبارات كانت الدراسة التشخيصية للوضعية اللُّغوية والاجتماعية للمجتمع الجزائري –والتي أوضحناها- أسبق من تحديد التصورات والأهداف الفرنسية التي من شأنها تحقيق التوسع الفرنسي لغة وثقافة.

إذن، كانت أهدافا مخططة واضحة الأثر تلك التي خططت لها فرنسا وعملت لتحقيقها على أرض الواقع الجزائري إبان احتلالها للمنطقة، ولعل هدفها الأول والرئيس هو توسيع التواجد اللغوي الفرنسي انطلاقا من الجزائر إلى بقية بلدان إفريقيا، ومن ثمة التمكين للثقافة الفرنسية وكذا الديانة النصرانية من التواجد في المناطق المحتلة.

وعلى هذا الأساس أيضا، عملت فرنسا على إحلال اللغة الفرنسية مكان اللغة العربية، لأنها أدركت أنه لن يتحول الشعب أول ما يتحول إلا من لغته؛ إذ يكون منشأ التحول «من أفكاره وعواطفه وآماله، وهو إذا انقطع من نسب لغته انقطع من نسب ماضيه، ورجعت قوميته صورة محفوظة في التاريخ، لا صورة محققة في وجوده؛ فليس كاللغة نسب للعاطفة والكفرة حتى أن أبناء الأب الواحد لو اختلفت ألسنتهم فنشأ منهم ناشئ على لغة، ونشأ الثاني على أخرى، والثالث على لغة ثالثة، لكانوا في العاطفة كأبناء ثلاثة آباء»[22]، وبين رغبة فرنسا في تحول الشعب الجزائري وانسلاخه من هويته اللغوية من جهة ومقاومة الجزائريين لهذه الرغبة الاستعمارية، توالت المحاولات المتكررة سنوات طوال.

يقول الجغرافي الفرنسي أونيزيم روكلي Onesime Reclus (ت: 1916م) عن الفرنسية العام 1880م:«إنها اللغة الأم أو الرسمية لأكثر من 400.000 من معمري الجزائر العازمين على الذهاب بعيدا في استيطان هذه القارة»[23]!

ولقد كان الرأي العام السائد في الأوساط الفرنسية يتفق على أن أول شيء يجب القيام به هو تعليم اللغة الفرنسية للعرب،يقول روفيغو Duc de Rovugo «إن الشيء العجيب الذي يمكن القيام به هو تعويض العربية شيئا فشيئا بالفرنسية، والذي لا يفتأ ينتشر في أوساط الأهالي، لا سيما إذا وفد الجيل الجديد بأعداد كبيرة للتعلم في مدارسنا»[24]، ولم تعدم فرنسا الطرق والوسائل بغية تحقيق هدفها الأسمى، وكانت تنفذ خططها وتقوِّمها بشكل مستمر،وهذا حال كل دولة مستعمرة «حيث يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضا على الأمة المستعمرة»[25]، وذلك بقوة سلطة نفوذه.

وقد بدأ تطبيق السياسة اللغوية الفرنسية بعد الاحتلال[26]، بإنشاء مدرسة التعليم التعاضدي (1830-1848م): محاولة جمع العرب والفرنسيين واليهود وغيرهم، في مدارس مشتركة يتم التدريس فيها باللغتين الفرنسية والعربية.

لكن هذه السياسة الفرنسية لم تلق القبول الكامل نظرا لعدة عوامل أهمها الفروق الدينية التي لا يمكن تجاوزها، وكذا العادات والمعتقدات والأخلاق، إضافة إلى جمع الأغنياء بالفقراء في مدرسة واحدة، بما في ذلك الأوروبيين من الطبقة الراقية والذين لم يتعودوا على هذا التعامل في أوروبا.

وحينما نتتبع مسار التعليم الابتدائي بالجزائر[27] أيام الاحتلال، فإننا نجده يتبع مبدئيا لقانون 28 مارس 1882م، المتعلق بالإجبار على التعليم الابتدائي، لكنه كذلك بالنسبة لأبناء الأوروبيين، أما الأهالي فلا يكون إجباريا عليهم إلا عندما يصدر أمر من الوالي العام بذلك، وعلى هذا، كان التعليم الابتدائي يُعطى لواحد في المائة من المسلمين ولنحو (15) في المائة من الأوروبيين.

أما التعليم الثانوي فمباح للمسلمين لكنه بالمقابل غير مجاني، وللعربية فيها مكانة ضئيلة جدا واختيارية، مما يجعلها أدنى مرتبة وأقل إقبالا من نظريتها الفرنسية.

وتوالت الإصلاحات والتعديلات التي شملت الخطة التعليمية الأولى، ولم يكن من السهل الاتفاق على توجيه السياسة التعليمية توجها موحدا، إلى أن أنشأت المدارس العربية الحرة، واستحدثت المدارس العربية الفرنسية للبنين وأخرى للإناث -بشكل محدود جدا-.

وقد عادت هذه السياسة اللغوية على الشعب سلبا، حتى «إن الجزائر التي كانت قبل الاحتلال، توفر لكافة أبنائها جميع الشروط اللازمة للحصول على نصيبهم في العلم والمعرفة، قد أصبح شعبها أمياً بنسبة حوالي ثمانين بالمائة سنة اندلاع الثورة»[28]، وكان هذا الأمر مُبيَّتا، لأن هذه الانتقائية في التعليم من شأنها تكوين طبقات اجتماعية[29]، أسر فقيرة تم إقصاء أبنائها من التعلُّم لتكون الفئة المستغلة في المجتمع، بينما شكَّلت الطبقات الوسطى الفئة المسموح لها بالتمدرس لحد معين، لتكون هي الأخرى اليد العاملة في المجتمع.

في حين فتحوا التعليم على مصراعيه لأبناء الطبقات الحاكمة البرجوازية سواء تعلق الأمر بالأوروبيين أو بالجزائريين بما في ذلك سكان الحواضر والأرياف، وبالتالي تكوين نخبة مفرنسة تعمل على تحقيق هدف فرنسا الأسمى، وطبقة كادحة لا تفهم لغتها ولا لغة المحتل، فلا تُطالب بحقوقها ولا تسعى لاستعادة السيادة على وطنها.

وإلى جانب سد أبواب التعليم الفرنسي في وجه الجزائريين، فإن السلطات الاستعمارية لم تكتف بهذا، «بل إنها بذلت كل ما في وسعها لمحاربة اللغة العربية سواء في المدارس أو في الكتاتيب، ولقد نجحت في ذلك إلى أقصى الحدود»[30]، مما يعني إدراكها التام بأهمية تعلم اللغة العربية، نظرا لعلمهم بمدى ارتباطها بكتاب الله، فتعلم العربية يقود حتما إلى تعلم القرآن

والدين الإسلامي على أصوله الصحيحة، «والطريقة التي لم يزل عليها الشعب الجزائري في تعليم القراءة والكتابة –ولا يزال عليها إلا ما شاء الله- هي إدماج هذا التعليم في تلقين القرآن وارتباط بعضهما ببعض، بحيث لا تجد عارفا بالقراءة والكتابة إلا قارئا للقرآن حافظا له أو غير حافظ»[31]، ولعل هذا من أهم أسباب ثبات اللغة العربية بأرض الجزائر.

يقول الحاكم الفرنسي في الجزائر بمناسبة مرور مائة عام على احتلالها: «يجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم... ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم، حتى ننتصر عليهم»[32]، ففي ذلك –إن تحقق- نصر لهم كما يعتقدون، وبئس ما اعتقدوا!

ويكفي أيضا أن نشير إلى المشاريع السياسية التي انتهجتها فرنسا بدعوى إصلاح أوضاع الجزائريين، وكان من أهمها: منشور ميشال (1933م) وقرارات ريني (1935م) وقانون شوتان (1938م)، وغيرها، والتي تقضي في بنودها بإغلاق المساجد في وجوه العلماء، وبمنعهم من التنقل في البلاد للوعظ والإرشاد، وبمنع تأسيس المدارس وتعليم اللغة العربية[33]، ناهيك عن اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في بلاد عربية وهي الجزائر، وجاء دور تنفيذها على يد صغار الإداريين فبالغوا وأسرفوا في التنكيل والمحاكمة، وسيق معلمو العربية إلى مجالس القضاء كما يساق المجرمون، وفرضت عليهم العقوبات المالية والبدنية من سجن وتغريب[34]، فكل المضايقات مسموح بها من أجل تنفيذ السياسة اللغوية الفرنسية على أرض الجزائر.

ولحصر دور اللغة العربية أكثر[35]، قامت فرنسا بمحاولة دفع الجزائريين إلى الحديث بالعامية وتغليب الشفوية، والاستعانة باللغة الأمازيغية على اللغة العربية، من أجل التمكين للغتها ومحو جزء هام من مقومات الأمة الجزائرية.

فماذا كان رد فعل الجزائريين على هذه السياسة المدروسة؟

إننا نرصد على مر تاريخ الجزائر النضالي وقوف الفئة المثقفة مدافعة عن قيم الجزائر، ومعلنة التحدي لفرنسا، ولعل من أهمها ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين العام 1931م، حفاظا على هوية الجزائر العربية الإسلامية، فقد شرع العلماء في تعليم اللغة العربية لأنها الوسيلة الصحيحة لفهم الدين، إذ جاء في تعريف الجمعية وتحديد هدف إنشائها، على صفحات جريدة البصائر الناطقة بلسانها: «...أسست لغرض شريف، تستدعيه ضرورة هذا الوطن وطبيعة أهله، ويستلزمه تاريخهم، الممتد في القدم إلى قرون وأجيال، وهذا الغرض هو تعليم الدين ولغة العرب التي هي لسانه»[36]، وبالتالي فقد كانت جهود الجمعية مناهضة للسياسة اللغوية الفرنسية التي حاولت جاهدة تغيير الثوابت الوطنية كما سلف ذكره.

ويذكر العلامة البشير الإبراهيمي (ت: 1889م) أحد مؤسسي الجمعية في كلام صريح يبرز الحرص المتأصِّل على تعلم اللغة العربية وتعليمها: «لهذه اللغة على الأمة الجزائرية حقان أكيدان، كل منهما يقتضي وجوب تعلمها، فكيف إذا اجتمعا، حق من حيث إنها لغة دين الأمة، بحكم أنّ الأمة مسلمة، وحق من حيث إنها لغة جنسها، بحكم أن الأمة عربية الجنس؛ ففي

المحافظة عليها محافظةٌ على جنسية ودين معًا»[37]، وهذا يعبر عن مقاومة الفئة المثقفة لكل القرارات التعسفية الفرنسية التي تعرقل تعليم الجزائريين للغتهم العربية.

وتعد تجربة جمعية العلماء المسلمين ذات الطابع الإصلاحي الاجتماعي، من أخصب التجارب وأحقها بالإشادة في إطار تكوين سياسة لغوية موازية لتلك التي سعت فرنسا لتحقيقها، ولعل شعار الجمعية المتمثل في (الإسلام،العربية، الجزائر) أصدق مدخل لفهم توجهها وهدفها الإصلاحي في مجتمع تكالبت عليه فرنسا لتجعله رقعة جغرافية وثقافية فرنسية.

كما تعمَّدت جمعية العلماء المسلمين لتوظيف الدارجة خدمة للغة العربية بحيث تكون جدار أمان لها، إذ كانت تسمح وتشجع على إلقاء محاضرات باللغة العامية في بيان ما تلزم معرفته من العقائد والعبادات والأحكام العملية والآداب الدينية والأخلاق الإسلامية العامة وخصوصًا ما يرجع إلى حسن العشرة وتربية الأولاد وغير ذلك مما يقيم العائلة الجزائرية خصوصا والمجتمع الجزائري عموما.

ناهيك عن ايعاز شعراء الملحون أن ينظموا قصائد ومقاطيع تتضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وتسعى الجمعية في نشرها بين العامّة وترغيبهم، بل كان الإمام الإبراهيمي ينظم الأزجال باللهجة العامية يندّد فيها بفرنسا، ويدعو إلى عدم رهبتها، والاستعداد لطردها من الجزائر، ويسرب تلك الأزجال إلى المدَّاحين لإنشادها في الأسواق[38].

وعلى هذا استغلت الجمعية العامية لصالح تحصين اللغة الفصحى، وليس كما يظهر من أن اللغة العربية تدخل في صراع داخلي مع نفسها حين تتعدُّد لهجاتها باختلاف البيئات[39].

وبالمقابل أعطت للأمازيغية مكانة في سياستها اللغوية، فحافظت على اللسان الأمازيغي الجزائري الذي يعد هو الآخر من مقومات الشخصية الجزائرية المتأصلة.

وهذا جزء من كلمة الشيخ ابن باديس التي ختم بها خطابهبعدما استمع والحضورإلى خطبة الشيخ يحيى حمودي باللغة القبائلية ليلة مأدبة النادي لجمعية العلماء،حفاظا على وحدة الجزائر، وتأكيدا لتعريب الأمازيغ، واحترامه للهجة الأمازيغية، يقول الشيخ: «إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضع عشرة قرنا، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء، وتؤلف بينهم في العسر واليسر، وتوحدهم في السراء والضراء، حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصراً مسلما جزائرياً، أمه الجزائر وأبوه الإسلام. وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله، وما أسالوا من محابرهم في مجالس الدرس لخدمة العلم (...) نعم إننا نتحد لننفع أنفسنا، وننفع إذا استطعنا غيرنا، ومعاذ الله والإسلام أن نتحد على أحد، أو نتفق على باطل، أو نتعاون على إثم أو عدوان»[40]، ومن هنا تتضح رؤية الشيخ والجمعية ككل للقضية اللغوية الجزائرية

بكل تجلياتها، وأهمية تكاتف الشعب الجزائري مهما اختلف لسانه، عربيا فصيحا وعاميا كان أو أمازيغيا بغية تحقيق الوحدة، والتي بدورها تكون سببا في مواجهة الاحتلال الفرنسي.

وتوالت محاولات فرنسا لطمس الهوية الجزائرية ضمن مخططها العام لفرنسة الجزائر، ظانين أن «الواسطة الوحيدة لنزع فكرة الاستقلال من رؤوس الوطنيين وإماتة روح المقاومة هي ملاشاة التعليم الإسلامي وطمس معالم الشريعة»[41]، لكن القيادات الجزائرية فهمت هذا التخطيط، ومعلوم أن الثورة التحريرية جعلت من مقومات الشخصية الجزائرية ركائز لها، ومنها اللغة العربية، فـ«الاتجاه الذي قادته الثورة كان الاتجاه العربي الإسلامي الذي استغل عدة عوامل في قضية التحرير منها: العروبة، الإسلام»[42]، وبذلك كان التشبث بالأرض أعمق مما تظن فرنسا.

وإضافة إلى هذا القمع الفكري الذي لم يأت أكله مع النخبة المثقفة الناطقة باللغة العربية في الجزائر وتحديدا«مع ثورة التحرير ازداد اضطهاد المثقفين الجزائريين ضراوة وقوة، وشمل الاضطهاد كل أنواع التعذيب والقمع بل وصل الأمر إلى الاغتيال بطرق شنيعة»[43]، مثلما كان الحال مع اغتيال رضا حوحو (ت: 1956م)والأمين العمودي (ت: 1957م) وعبد الكريم العقون (ت: 1959م) والربيع بوشامة (ت: 1959م)، أو الإخضاع للسجن أو الإقامة الجبرية كما حصل مع مفدي زكرياء (ت: 1977م) ومحمد العيد آل خليفة (ت: 1979م)[44].

إذن، بعد هذه السطور المركزة، والتي اشتغلنا فيها على ايضاح السياسة اللُّغوية الفرنسية في الجزائر خلال فترة الاستعمار (1962-1830م)، خرجنا بنتائج نلخصها فيما يلي:

لقد عرفت الجزائر قبل الاحتلال حركة ثقافية وتعليمية شملت مختلف المؤسسات كالكتاتيب والمساجد والزوايا، وبعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، حاولت فرنسا تحقيق هدفها المتمثل في التمكين للثقافة الفرنسية من التواجد في الجزائر ثم لبقية المناطق التي احتلتها، وتكوين نخبة جزائرية مفرنسة.

ولتحقيق أغراضها التوسعية قام الاحتلال بمجموعة من التدابير أهمها حصر التعليم في فئة معينة، وتضييق الخناق على المؤسسات التعليمية، وإحلال الفرنسية مكان العربية.

ومواجهةً لهذه القرارات المجحفة ظهرت فئات مثقفة من المجتمع عملت على رد أطماع فرنسا في تشويه مقومات الأمة، على شاكلة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي عملت على فضح خطط فرنسا، وتوعية الشعب بضرورة المحافظة على لغته ودينه ومكتسباته.

ولم تنجح فرنسا في نهاية المطاف، وتوقف المد الاستعماري، وأجهضت فكرة الجزائر فرنسية، وعادت اللغة العربية اللغة الرسمية للبلد.

الهوامش:

[1] – أبو خلدون ساطع الحصري، ما هي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، 386.

[2] – أبو نصر إسماعيل الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط4، دار العلم للملايين، بيروت،لبنان، 1407هـ – 1987م، 938/3، ونشير هنا، أن هناك من يعتبر كلمة (سياسة) معربة، ذكر المقريزي (ت: 845هـ) في خططه أن كلمة (سياسة) «أصلها ياسه، فحرَّفها أهل مصر وزادوا بأوّلها سينا فقالوا سياسة، وأدخلوا عليها الألف واللام فظنّ من لا علم عنده أنها كلمة عربية» ينظر: تقي الدين المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1418هـ، 383/3.

[3]– تقي الدين المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، 383/3.

[4]– عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 362/3

[5]– أبو البقاء الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 510.

[6]– عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، ط2، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1408هـ – 1988م، 753.

[7]– بالإنجليزية: (Language Policy) وبالفرنسية (Politique Linguistique).

[8]– لويس جان كالفي حرب اللغات والسياسات اللغوية، ، ترجمة: حسن حمزة، ط1، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2008م، 396.

[9]– المرجع السابق، 221.

[10]– البشير عصام المراكشي، تكوين الملكة اللغوية، ط3، مركز نماء للبحوث والدراسات، 2016م، 47.

[11]– مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم: محمد الميلي، المؤسسة الوطنيّة للكتاب بالجزائر، 1406هـ / 1986م، 2/28–40.

[12]– مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830م، ط2، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 332/2.

[13]– عن بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر ينظر: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1830–1900م، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1/15–16.

[14]– ينظر: بسام العسلي، المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي (1830 – 1838م) ، سلسلة جهاد شعب الجزائر، ط3، 1406هـ – 1986م.

[15]– ينظر: بسام العسلي، نهج الثورة الجزائرية (الصراع السياسي)، سلسلة جهاد شعب الجزائر، ط2، 1406هـ – 1986م.

[16]– مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، 40/2.

[17]– عبد الملك مرتاض، الأدب الجزائري القديم (دراسة في الجذور) دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 40.

[18]– تقي الدين ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1419هـ / 1999م، 526/1.

[19]– عبد القادر الفاسي الفهري، السياسة اللغوية في البلاد العربية، دار الكتاب الجديد، المتحدة، ط1، أيلول/سبتمبر 2013م، 36.

[20]– مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، 317/3.
[21]– ميشال زكريا، قضايا ألسنية تطبيقية، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1993م، 13.
[22]– مصطفي صادق الرافعي، وحي القلم، ط1، دار الكتب العلمية، 1421هـ–2000م، 27/3.
[23]– خولة طالب الإبراهيمي، الجزائريون والمسألة اللغوية، ترجمة:محمد يحياتن، دار الحكمة، 2007م، 28.
[24]– ايفون تيران، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة، المدارس والممارسات الطبية والدين: (1830–1880م) دار القصبة للنشر، ترجمة محمد عبد الكريم أوزغلة، المراجعة والإشراف: مصطفى ماضي، 46.
[25]– مصطفي صادق الرافعي، وحي القلم، 27/3.
[26]– ينظر :ايفون تيران، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة، 49–83.
[27]– ينظر :أحمد توفيق المدني،كتابالجزائر، المطبعة العربية، الجزائر، 1931م، 294–297.
[28]– محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1420 هـ / 1999م، 21/1.
[29]– ينظر :خولة طالب الإبراهيمي، الجزائريون والمسألة اللغوية، 28.
[30]– محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، 21/1.
[31]– جلال العالم، قادة الغرب يقولون: دمّروا الإسلام أبيدوا أهله، ط10، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1403هـ/1982م، 69.
[32]– مبارك الميلي، آثار الشيخ مبارك الميلي (1945–1896م) جمعها ورتّبها وعلّق عليها وخرّج أخبارها أبو عبد الرحمن محمود، دار الرشيد للكتاب والقرآن الكريم، الجزائر، ط1، 1436هـ، 2015م، 98/3.
[33]– ينظر: مازن صلاح مطبقاني، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية، دار القلم، دمشق، سورية، دار العلوم، بيروت، لبنان، 1988م، 193–244.
[34]– ينظر: محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، ، 143/2.
[35]– ينظر: خولة طالب الإبراهيمي، الجزائريون والمسألة اللغوية، 28.
[36]– جريدة البصائر، العدد: 160، صدر يوم: 16 صفر 1358هـ/ 07 أفريل 1939م.
[37]– محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، 1997م، 48/3.
[38]– ينظر: المرجع السابق، 85/1 –94/1 –19/5.
[39]– هادي نهر،علم اللغة الاجتماعي عند العرب، ط1، الجامعة المستنصرية، 1408هـ/ 1988م،134.
[40]– عبد الحميد محمد بن باديس، آثار ابن باديس، تحقيق: عمار طالبي، ط1، 1388هـ/ 1968م، : دار ومكتبة الشركة الجزائرية، 483/3.
[41]– لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، تحقيق: شكيب أرسلان وعجاج نويهض، ط3، دار الفكر، 1391هـ/1971م، 178/3.
[42]– نبيل أحمد بلاسي، الاتجاه العربي والإسلامي ودوره في تحرير الجزائر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م،179.
[43]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، طبعة خاصة، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م، 146/10.
[44]– ينظر: عادل نويهض معجم أعلام الجزائر –من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر– ط2، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت – لبنان، 1400هـ.